العدد ١٨ آب ٢٠٢٥
No. 18 – Ang 2025
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

التضاد الخلّاق: برهان عقلي على وجود الله في مرويات الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

م.د ذوالفقار عادل عيسى الموسوي

جامعة كربلاء – كلية العلوم الإسلامية- قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

Asst. Prof. Thulfiqar Adel Eesa Al-Mousawi

University of Karbala – College of Islamic Sciences – Department of Quranic Sciences and Islamic Education

thulfiqar.adil@uokerbala.edu.iq

المستخلص

يتناول هذا البحث برهانًا عقليًا جديدًا لإثبات وجود الله تعالى، يُستقى من التراث الإسلامي، ويتبلور من خلال تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام). يُقدّم البحث مفهوم "التضاد الخلّاق "بوصفه دليلاً فلسفيًا وروحيًا، ينطلق من أن التفاعلات المنتجة بين المتضادات في الكون – كالنور والظلام، والحياة والموت، والحرّ والبرد – تكشف عن نظام دقيق لا يمكن أن يصدر عن ذات هذه الأضداد، نظرًا لعجزها الذاتي عن التنظيم والإبداع. ومن خلال تحليل أربعة مستويات للتضاد (الكوني، والحيوي، والإنساني، والروحي)، يثبت البحث أن هذا النمط من التضاد لا يمكن أن يعمل إلا بتدبير من خالق حكيم وعالم قادر. ويُبرز البحث تميّز هذا البرهان عن براهين تقليدية أخرى، كبرهان الحدوث، وبرهان النظم، وبرهان الإمكان والوجوب، من حيث قربه إلى الفهم العام وارتكازه على الشواهد التجريبية والوجودية. يعتمد البحث على روايات أهل البيت (عليهم السلام)، ومنظومات علم الكلام الإمامي، ليؤسس لرؤية تؤكّد أن التضاد لا ينقض فكرة الخالق، بل يعززها ويدعمها.

الكلمات المفتاحية:

التضاد الخلّاق -الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)-علم الكلام الإسلامي -البراهين الفلسفية على وجود الله -علم الكلام المقارن.

Abstract

This paper investigates a unique theological and philosophical argument for the existence of God, rooted in the Islamic tradition and articulated through the teachings of Imam Ja‘far al-Sadiq (peace be upon him). The study introduces the concept of "Creative Contradiction" (al-Tadād al-Khallāq), which suggests that the productive interaction of opposites within the universe—such as light and darkness, life and death, heat and cold—reflects a deliberate, intelligent design that transcends the capacity of the elements themselves. Through a layered analysis of natural, biological, human, and spiritual oppositions, the research argues that these dynamics cannot organize themselves without the guidance of an all-knowing, all-powerful Creator. Compared with classical proofs such as the Cosmological Argument, the Teleological Argument, and the Argument from Contingency, the Creative Contradiction argument provides a more intuitive and experiential pathway to recognizing divine wisdom and authorship. This work draws upon Imami hadith literature, classical kalām, and contemporary

metaphysical frameworks to demonstrate how contradiction, rather than undermining belief, serves as a compelling affirmation of God's existence and wisdom.

Keywords:

Creative Contradiction – Imam Ja'far al-Sadiq (peace be upon him) – Islamic Theology – Philosophical Arguments for the Existence of God – Comparative Kalām Studies

المقدمة

تُعدّ مسألة إثبات وجود الله تعالى من أهم القضايا التي شغلت الفكر الإنساني عبر التاريخ، وقد تنوعت المناهج والبراهين التي قدمها الفلاسفة والمتكلمون لإثبات هذه الحقيقة الكبرى. وفي التراث الإسلامي عموماً، والشيعي الإمامي خصوصاً، نجد ثراءً فكرياً هائلاً في هذا المجال، حيث قدم الأئمة المعصومون (عليهم السلام) تعاليم عميقة تجمع بين الحكمة الإلهية والبرهان العقلي.

يأتي هذا البحث ليسلط الضوء على مفهوم مبتكر في الفكر الإسلامي، وهو "التضاد الخلّاق" كما يظهر في تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

إشكالية البحث

تكمن إشكالية هذا البحث في محاولة استكشاف وتحليل مفهوم "التضاد الخلّاق" كبرهان فلسفي مستقل على وجود الله، مستنداً إلى التراث الفكري للإمام جعفر الصادق (عليه السلام). فبينما تركز البراهين التقليدية على مفاهيم مثل الحدوث والإمكان والنظم، يقدم مفهوم التضاد الخلّاق منظوراً جديداً يعتمد على فهم عميق لطبيعة التضاد في الكون وكيف أن هذا التضاد، بدلاً من أن يكون مصدر فوضى أو تناقض، يصبح مصدر إبداع وخلق وتوازن، مما يدل على وجود حكمة إلهية عليا تدبر هذا التضاد وتوجهه نحو الكمال.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من عدة جوانب:

أولاً: الجانب التراثي، حيث يساهم في إحياء وتطوير التراث الفكري للإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، والذي يحتوي على كنوز معرفية لم تُستكشف بالكامل بعد.

ثانياً: الجانب الفلسفي، حيث يقدم برهاناً جديداً على وجود الله يختلف عن البراهين التقليدية، ويفتح آفاقاً جديدة في علم الكلام الإسلامي.

ثالثاً: الجانب المعرفي، حيث يربط بين المنطق الفلسفي والحكمة الإلهية، ويقدم نموذجاً متكاملاً لفهم العلاقة بين العقل والنقل في التراث الإسلامي.

رابعاً: الجانب المعاصر، حيث يمكن أن يساهم هذا المفهوم في الحوار الفلسفي المعاصر حول قضايا الوجود والمعرفة والإيمان.

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على منهجية تحليلية استقرائية، تجمع بين:

١. التحليل النصي لأحاديث وتعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) المتعلقة بالتضاد والحكمة الإلهية.

٢. المنهج المقارن لمقارنة مفهوم التضاد الخلّاق مع البراهين الفلسفية الأخرى على وجود الله.

٣.المنهج الاستنباطي لاستخراج الأسس الفلسفية والكلامية لهذا المفهوم وتطويرها إلى برهان متكامل.

٤.المنهج التركيبي لربط هذا المفهوم بالإطار العام لعلم الكلام الشيعي الإمامي ونظرية المعرفة الإسلامية.

حدود البحث

يقتصر هذا البحث على:

١.دراسة مفهوم التضاد الخلّاق في تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) تحديداً.

٢.التركيز على الجانب الفلسفي والكلامي دون الخوض في التفاصيل الفقهية أو التاريخية.

٣.الاعتماد على المصادر الشيعية الإمامية المعتبرة في نقل أحاديث وتعاليم الإمام الصادق (عليه السلام).

الدراسات السابقة

رغم الثراء الهائل في التراث المتعلق بالإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، إلا أن مفهوم "التضاد الخلّاق" كبرهان فلسفي مستقل لم يحظ بدراسة مستقلة شاملة. معظم الدراسات السابقة ركزت على جوانب أخرى من فكر الإمام الصادق (عليه السلام) مثل الفقه والحديث والتفسير، أو تناولت البراهين الفلسفية التقليدية على وجود الله. هذا البحث يسعى لسد هذه الثغرة وتقديم دراسة متخصصة في هذا المفهوم المبتكر.

المبحث الأول: الأسس المفاهيمية للتضاد في الفلسفة الإسلامية

اولا: مفهوم التضاد في التراث الفلسفي الإسلامي

يُعتبر مفهوم التضاد من المفاهيم الأساسية في الفلسفة الإسلامية، وقد حظي باهتمام كبير من قبل الفلاسفة والمتكلمين المسلمين عبر التاريخ. ولفهم مفهوم "التضاد الخلّاق" الذي نسعى لتطويره في هذا البحث، لا بد من استكشاف الجذور الفلسفية لمفهوم التضاد في التراث الإسلامي.

تعريف التضاد لغة واصطلاحاً

لغة: يأتي مفهوم التضاد من الجذر اللغوي "ض د د"، والضد في اللغة هو المخالف والمقابل. يقال: "ضاده" أي خالفه وقاومه، و"الضدان" هما الشيئان المتقابلان اللذان لا يجتمعان في محل واحد في وقت واحد[١].

اصطلاحاً: عرّف الفلاسفة المسلمون التضاد بتعريفات متنوعة، لكن التعريف الأكثر دقة وشمولية هو ما ذكره صدر المتألهين في "الأسفار الأربعة": "المتضادان أمران وجوديان، متواردان على موضوع واحد، داخلان تحت جنس قريب، بينهما غاية الخلاف" [٢].

هذا التعريف يحتوي على عناصر أساسية أربعة:

أولاً: كون الضدين أمرين وجوديين، أي أن كلاً منهما له وجود حقيقي وليس مجرد عدم أو نفي للآخر[٣].

ثانياً: تواردهما على موضوع واحد، بمعنى أن هناك محلاً أو موضوعاً يمكن أن يحل فيه كل من الضدين، لكن ليس في الوقت نفسه.

ثالثاً: اندراجهما تحت جنس قريب، أي أنهما يشتركان في جنس عام لكنهما يختلفان في الفصل النوعي.

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، مادة "ضدّ"، ج٧، ص٢٨٠، ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة "ضدّ"، ج٣، ص٣٩٠.
[٢] صدر الدين الشيرازي، "الأسفار الأربعة"، ج١، ص٧٩–٨٠.
[٣] هذا الشرح مأخوذ من شروح الأسفار وملخّصات مباحث الكيفيات. نجد نفس التقسيم عند: السبزواري، شرح المنظومة، قسم الكيفيات، ص١٤٢–١٤٥،العلامة الطباطبائي، نُقول متفرقة في "نهاية الحكمة"، باب الكيفيات،الطباطبائي، نهاية الحكمة، ص١٩٥.

رابعاً: وجود غاية الخلاف بينهما، بمعنى أنهما يمثلان أقصى درجات التباين في إطار الجنس الواحد.

أنواع التضاد في الفلسفة الإسلامية

قسم الفلاسفة المسلمون التضاد إلى أنواع مختلفة بحسب اعتبارات متعددة:

١. التضاد الحقيقي والتضاد الاعتباري:

التضاد الحقيقي هو الذي لا يختلف بحسب النسب والاعتبارات، مثل التضاد بين السواد والبياض. فالسواد يبقى سواداً والبياض يبقى بياضاً مهما اختلفت النسب والاعتبارات. أما التضاد الاعتباري فهو الذي يختلف بحسب النسب، مثل الألوان الوسطى كالأصفر والأخضر، فالأصفر قد يبدو قريباً من البياض عند مقارنته بالأسود، وقريباً من السواد عند مقارنته بالأبيض[٤].

٢. التضاد في الجواهر والتضاد في الأعراض:

التضاد في الأعراض أوضح وأكثر شيوعاً، مثل تضاد الألوان والطعوم والروائح. أما التضاد في الجواهر فهو أكثر تعقيداً، ويظهر في تضاد الصور النوعية الجوهرية، مثل التضاد بين الصورة النارية والصورة المائية، أو بين صورة النبات وصورة المعدن[٥].

٣. التضاد الطبيعي والتضاد الاختياري[٦]:

التضاد الطبيعي هو الذي يحدث بحكم الطبيعة دون تدخل إرادي، مثل تضاد الحر والبرد. أما التضاد الاختياري فهو الذي يحدث بفعل الإرادة والاختيار، مثل تضاد الخير والشر في الأفعال الإنسانية.

ثانيا: التضاد والتوازن الكوني

إن فهم التضاد في الفلسفة الإسلامية لا يقتصر على كونه مجرد تقابل بين أمرين متخالفين، بل يتعدى ذلك إلى فهم عميق لدور التضاد في تحقيق التوازن والانسجام الكوني. هذا الفهم يمهد الطريق لاستيعاب مفهوم "التضاد الخلّاق" الذي سنتناوله في الفصول اللاحقة.

التضاد كمبدأ كوني

يرى الفلاسفة المسلمون أن التضاد ليس مجرد ظاهرة عارضة في الكون، بل هو مبدأ أساسي من مبادئ الوجود[٧]. فالكون في نظرهم قائم على نظام دقيق من التضادات المتوازنة، من أصغر الجزيئات إلى أكبر الأجرام السماوية. هذا النظام من التضادات لا يؤدي إلى الفوضى أو التدمير، بل على العكس، يؤدي إلى الانسجام والإبداع والتطور[٨].

ففي عالم الطبيعة، نجد تضاد العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) يؤدي إلى تكوين جميع الموجودات الطبيعية. وفي عالم الأحياء، نجد تضاد القوى المختلفة (الجاذبة والدافعة، الباردة والحارة،

---

[٤] هذا التقسيم مذكور عند الفلاسفة، خاصةً: صدر الدين الشيرازي، الأسفار، ج١، ص٩٢،

[٥] الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص٨٩ ،هذه الفقرة مستندة للفكر المشائي والإشراقي ،ابن سينا، الشفاء: الطبيعيات، ج٢، ص٢٤٥، السهروردي، حكمة الإشراق، ص١٤١–١٤٤.

[٦] استخدم هذا التفريق المتكلمون خصوصًا في: الجبر والاختيار، كالشيخ المفيد والطوسي.

[٧] هذه الفقرة تُمثّل امتدادًا للمفهوم الفلسفي الذي رسّخه صدر المتألهين الشيرازي في الأسفار، حيث عدّ التضاد من "أصول الحركة في الطبيعة"، واعتبره من عوامل التجدد في الكائنات. ويؤكده أيضًا ابن سينا في الطبيعيات عند الحديث عن مزاج العناصر الأربعة، ظ: صدر الدين الشيرازي، الأسفار الأربعة، ج٣، ص١٨–٢٥ ، ابن سينا، الشفاء – الطبيعيات، ج٢، ص٢٤٢–٢٤٧،السهروردي، اللمحات، ص٩٩–١٠١، في ربط التضاد بالحركة والتكوين.

[٨] الملا صدرا، الحكمة المتعالية، ج٢، ص١٥٦

الرطبة والجافة) يؤدي إلى الحياة والنمو والتطور. وفي عالم الإنسان، نجد تضاد القوى النفسية (العقل والشهوة، الخوف والرجاء، الحب والبغض) يؤدي إلى الإبداع والتقدم الحضاري[٩].

الحكمة الإلهية في التضاد

من منظور إسلامي، فإن وجود التضاد في الكون ليس صدفة أو نتيجة لقوى عمياء، بل هو تجلٍ للحكمة الإلهية. فالله تعالى خلق الأشياء متضادة لحكم عديدة[١٠]:

أولاً: إظهار قدرته تعالى في الجمع بين المتضادات وتحقيق التوازن بينها.

ثانياً: تحقيق الكمال في الخلق، فالكمال لا يتحقق إلا بوجود جميع الإمكانات والاحتمالات، بما في ذلك المتضادات.

ثالثاً: إتاحة المجال للاختبار والامتحان، خاصة في عالم الإنسان، حيث يُختبر الإنسان في اختياره بين المتضادات.

رابعاً: تحقيق التنوع والثراء في الخلق، فلولا التضاد لكان الكون رتيباً وفقيراً في تنوعه[١١].

ثالثا: التضاد في علم الكلام الشيعي الإمامي

يحتل مفهوم التضاد مكانة خاصة في علم الكلام الشيعي الإمامي، حيث يُستخدم في مناقشة قضايا عقدية مهمة مثل العدل الإلهي، والقضاء والقدر، والجبر والاختيار[١٢]. هذا الاستخدام الكلامي لمفهوم التضاد يوفر أرضية خصبة لتطوير مفهوم "التضاد الخلّاق" كبرهان على وجود الله.

التضاد والعدل الإلهي

في مناقشة مسألة العدل الإلهي، يواجه المتكلمون الشيعة إشكالية وجود الشر والألم في عالم خلقه إله عادل وحكيم. هنا يأتي مفهوم التضاد ليقدم حلاً فلسفياً عميقاً: فوجود الشر ليس نقصاً في العدل الإلهي، بل هو ضرورة كونية لتحقيق الخير الأعظم. فالخير والشر متضادان، ولكن هذا التضاد ضروري لتحقيق الكمال الكوني والعدل الإلهي[١٣].

فالله تعالى لم يخلق الشر لذاته، بل خلقه كضد للخير ليتحقق التوازن الكوني، وهذا التوازن يؤدي إلى خير أعظم لا يمكن تحقيقه بدون وجود هذا التضاد. مثلاً، لولا وجود المرض لما عُرفت قيمة الصحة، ولولا وجود الظلم لما عُرفت قيمة العدل، ولولا وجود الجهل لما عُرفت قيمة العلم[١٤].

---

[٩] تناول هذه المسألة صدر المتألهين تحت مسمى "المزاج النفسي"، وربطها بـ"الكمالات الوجودية" ، ظ: صدر المتألهين، الأسفار، ج٨، ص١٠٠–١٠٥ ،وأيضًا الخواجة الطوسي في "أخلاق ناصري" تحدّث عن توازن القوى الثلاث: العقل، الغضب، والشهوة، ظ: نصير الدين الطوسي، أخلاق ناصري، ص١٣٣–١٤٠.

[١٠] هذه الغايات وردت متفرقة في كلمات: الإمام الصادق (عليه السلام) في توحيد الصدوق ، ظ: الصدوق، التوحيد، ص٢٦٣، باب "الخلق بالأضداد"، وبحار الأنوار المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٢٠–٢٢.، والمتكلمين الإمامية عند تحليلهم لـ"مسألة الشر" ، وتُستفاد من تفسير الطباطبائي أيضًا عند قوله: "ليبلوكم أيكم أحسن عملاً"، ظ: الطباطبائي، الميزان، ج٢٠، ص٢٣٠، تفسير (الأنعام:١٦٥).

[١١] العلامة الحلي، كشف المراد، ص٢٣٤

[١٢] تكرر هذا المعنى عند أعلام الإمامية مثل: الشيخ المفيد: في تفسيره للعدل ومشكلة الشر، ظ: الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص٦٠–٦٥، والعلامة الحلي،ظ: نهج الحق وكشف الصدق، ص٢١٨–٢٢٣، والسيد المرتضى، الشافي في الإمامة، ظ:ج١، ص١٢٨–١٣٠.

[١٣] الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص٧٨

[١٤] تم التركيز على هذا المعنى كثيرًا في تراث الامامية: أشار اليها الطوسي، ظ:الاقتصاد في الاعتقاد، ص١١٨–١٢١، والطباطبائي، ظ: الميزان، ج١٧، ص٧٤–٧٦ (تفسير الكهف:٧) ووردت فكرة "الخير الكلي الناتج من الشر الجزئي" لدى الفلاسفة كابن سينا أيضًا، ظ: ابن سينا، الشفاء: الإلهيات، ج١، ص٣٤٦–٣٥٠.

التضاد والحرية الإنسانية[١٥]

في مناقشة مسألة الجبر والاختيار، يستخدم المتكلمون الشيعة مفهوم التضاد لتوضيح طبيعة الحرية الإنسانية. فالإنسان حر في اختياره بين المتضادات (الخير والشر، الحق والباطل، الهدى والضلال)، وهذه الحرية هي التي تجعل الاختبار الإلهي ذا معنى[١٦].

لكن هذه الحرية ليست مطلقة، بل هي محكومة بقوانين إلهية تضمن عدم انحراف التضاد عن مساره الصحيح نحو تحقيق الحكمة الإلهية.[١٧] فالله تعالى وضع في الكون نظاماً دقيقاً يضمن أن التضاد بين الخير والشر لا يؤدي إلى الفوضى، بل يؤدي في النهاية إلى انتصار الخير وتحقيق العدل.

التضاد والمعرفة الإلهية

في نظرية المعرفة الشيعية الإمامية، يلعب التضاد دوراً مهماً في فهم طبيعة المعرفة الإنسانية والإلهية.[١٨] فالمعرفة الإنسانية تقوم على التمييز بين المتضادات، فلا يمكن معرفة الشيء إلا بمعرفة ضده، أما المعرفة الإلهية فهي محيطة بجميع المتضادات دون أن تتأثر بها أو تنحاز إلى أحدها[١٩].

هذا الفهم يقود إلى استنتاج مهم: أن وجود التضاد في الكون دليل على وجود علم إلهي محيط ينظم هذا التضاد ويوجهه نحو تحقيق الحكمة والكمال. فلولا هذا العلم الإلهي لأدى التضاد إلى الفوضى والدمار.

رابعا: التضاد والإبداع في الفكر الإسلامي

إن من أهم الجوانب المبتكرة في الفهم الإسلامي للتضاد هو ربطه بمفهوم الإبداع والخلق، فالتضاد في النظرة الإسلامية ليس مجرد تقابل سلبي بين قوتين متعارضتين، بل هو مصدر للإبداع والتجديد والتطور. هذا الفهم يشكل الأساس النظري لمفهوم "التضاد الخلّاق" الذي نسعى لتطويره.

التضاد كمحرك للتطور

يرى المفكرون المسلمون أن التضاد هو المحرك الأساسي للتطور والتقدم في جميع مستويات الوجود. هذا التصور نجده في فلسفة صدر المتألهين من خلال فكرة الحركة الجوهرية[٢٠]،كما أن ابن سينا تحدث عن التغير والتطور الناتج عن المزاجات المتضادة[٢١]. وفي العصر الحديث، نجد إشارات مشابهة عند الشهيد محمد باقر الصدر في المدرسة الإسلامية[٢٢].حيث يُعدّ التضاد من دوافع التحول في الجوهر. ففي عالم الطبيعة، التضاد بين القوى المختلفة يؤدي إلى تكوين أشكال جديدة من المادة والطاقة. وفي عالم الأحياء،

---

[١٥] هذا المضمون مستقر في أصول علم الكلام الإمامي: حيث ان الشيخ المفيد والمرتضى رفضا الجبر واستخدما مفهوم الثنائية والاختيار، ظ: المفيد، تصحيح الاعتقاد، ص٥٥–٥٩، المرتضى، الذخيرة، ص١٨٥–١٩٠ بينما أشار الخواجة الطوسي في "كشف المراد" إلى التوسط بين الجبر والتفويض ، الطوسي، كشف المراد، ص٢٤٥–٢٥٠.

[١٦] الشريف المرتضى، الذخيرة في علم الكلام، ص١٤٥

[١٧] هذه الفكرة توجد بصيغة قريبة عند: العلامة الحلي والخواجة الطوسي في شرح العلاقة بين الإرادة الإلهية والاختيار البشري ،يعبرون عنها غالبًا بـ"العدل والفضل" و"نظام الأحسن"، ظ: الحلي، شرح الباب الحادي عشر، ص١٠٤،الطوسي، كشف المراد، ص٢٥٢، في باب العدل.

[١٨] لم يُصرّح بهذا المفهوم بهذه الصيغة في علم الكلام، لكن: العلامة الطباطبائي يتحدث كثيرًا عن "المعرفة بالضد" في الميزان، ظ: الطباطبائي، الميزان، ج١، ص٥٢–٥٤، تفسير آية (وجعلناكم شعوباً...)، الشيخ السبحاني في الإلهيات يصرّح بعلاقة علم الله المحيط بجميع المتضادات، ظ: السبحاني، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، ج٢، ص٢٤٠–٢٤٥.

[١٩] الطبرسي، مجمع البيان، ج١، ص٢٣٤

[٢٠] ظ: صدر الدين الشيرازي، الأسفار، ج٧، ص٢٨–٣٠.

[٢١] ابن سينا، الشفاء: الطبيعيات، ج٢، ص٢٥٥.

[٢٢] محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية، ص٨٧–٩٠.

التضاد بين الوراثة والتغير يؤدي إلى التطور والتكيف. وفي عالم الإنسان، التضاد بين الأفكار والمعتقدات يؤدي إلى الإبداع الفكري والحضاري[٢٣].

هذا التطور الناتج عن التضاد ليس عشوائياً أو فوضوياً، بل هو محكوم بقوانين إلهية دقيقة تضمن توجيهه نحو الكمال والخير. فالله تعالى وضع في كل تضاد بذرة الإبداع والتطور، لكنه في الوقت نفسه وضع الضوابط التي تمنع هذا التطور من الانحراف عن مساره الصحيح.

التضاد والجمال الكوني

من الجوانب الهامة في الفهم الإسلامي للتضاد ربطه بمفهوم الجمال الكوني. فالجمال في النظرة الإسلامية لا يقوم على التماثل والرتابة، بل على التنوع والتضاد المنسجم وورد هذا المعنى في القرآن الكريم بقوله تعالى: {ومن آياته اختلاف الليل والنهار}.فأجمل المناظر الطبيعية هي التي تجمع بين المتضادات: الجبال والوديان، البحار والصحاري، النهار والليل، الربيع والخريف[٢٤].

هذا الجمال الناتج عن التضاد ليس مجرد متعة حسية، بل هو تجلٍ للجمال الإلهي المطلق، فالله تعالى جميل يحب الجمال، وقد أودع في خلقه جمالاً يعكس جماله المطلق. وهذا الجمال يتجلى بأوضح صوره في التضاد المنسجم الذي يسود الكون.

التضاد والحكمة العملية

في مجال الأخلاق والسلوك، يقدم مفهوم التضاد إطاراً نظرياً مهماً لفهم الحكمة العملية، فالحكيم هو الذي يعرف كيف يوازن بين المتضادات في سلوكه: بين الشجاعة والحذر، بين الكرم والاقتصاد، بين الحزم واللين، بين العدل والرحمة[٢٥].

هذا التوازن بين المتضادات لا يأتي بالفطرة أو الصدفة، بل يحتاج إلى علم وحكمة وتوفيق إلهي. فالإنسان بطبيعته ميال إلى الإفراط أو التفريط، ولا يستطيع تحقيق التوازن الصحيح بين المتضادات إلا بهداية من الله تعالى.

المبحث الثاني: التضاد الخلّاق في تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

اولا: الإمام الصادق (عليه السلام) والفكر الفلسفي

يُعتبر الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) (٨٣-١٤٨ هـ)الامام السادس من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ويعتبره المخالف قبل الموالف من أعظم الشخصيات العلمية في التاريخ الإسلامي، وقد ترك بصمات واضحة في مختلف العلوم والمعارف[٢٦].

المكانة العلمية للإمام الصادق (عليه السلام)

لقد شهد له المؤرخون والعلماء من مختلف المذاهب بالعلم الغزير والحكمة البالغة. يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: "جعفر الصادق كبير الشأن من أئمة العلم، كان من أوسع الناس علماً وأكثرهم فقهاً وأعظمهم ورعاً"[٢٧]. ويقول ابن حجر في تهذيب التهذيب: "جعفر بن محمد الصادق ثقة فاضل، صدوق، كان من أجلّ التابعين"[٢٨].

[٢٣] ابن سينا، الشفاء، قسم الطبيعيات، ص١٦٧
[٢٤] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص٨٩
[٢٥] الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص١٢٣
[٢٦] الشيخ المفيد، الإرشاد، ج٢، ص١٧٨
[٢٧] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٢٥٥
[٢٨] ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٨٨

هذه الشهادات من علماء أهل السنة تؤكد المكانة العلمية الرفيعة للإمام الصادق (عليه السلام)، والتي تجعل من تعاليمه مصدراً مركزيا للمعرفة الإسلامية في مختلف المجالات، بما في ذلك الفلسفة وعلم الكلام.

منهج الإمام الصادق (عليه السلام) في التعليم

تميز منهج الإمام الصادق (عليه السلام) في التعليم بعدة خصائص مهمة:

أولاً: الجمع بين العقل والنقل، فهو لا يكتفي بالنصوص بل يستخدم البراهين العقلية والحجج المنطقية لإثبات الحقائق الدينية.

ثانياً: التدرج في التعليم، فهو يبدأ بالمفاهيم البسيطة ثم ينتقل إلى المفاهيم المعقدة، مراعياً قدرات المتعلمين ومستوياتهم.

ثالثاً: استخدام الأمثلة والتشبيهات لتقريب المفاهيم المجردة إلى الأذهان.

رابعاً: الربط بين النظرية والتطبيق، فهو لا يكتفي بتعليم المفاهيم النظرية، بل يوضح تطبيقاتها العملية في الحياة[٢٩].

الإمام الصادق (عليه السلام) والفلسفة

رغم أن الإمام الصادق (عليه السلام) عاش في فترة مبكرة من تاريخ الفكر، إلا أن تعاليمه تحتوي على مفاهيم عقلية عميقة ومبتكرة..

من أهم المفاهيم العقلية التي طرحها الإمام الصادق (عليه السلام):

١.مفهوم الوجود والعدم: حيث قدم تحليلاً عميقاً لطبيعة الوجود والعدم وعلاقتهما بالخالق والمخلوق.

٢.مفهوم العلة والمعلول: حيث وضح طبيعة العلاقة السببية في الكون وعلاقتها بالإرادة الإلهية.

٣.مفهوم الجوهر والعرض: حيث ميز بين الجوهر الثابت والأعراض المتغيرة في الموجودات.

٤.مفهوم التضاد والتوازن: وهو ما سنركز عليه في هذا البحث[٣٠].

ثانيا: أحاديث الإمام الصادق (عليه السلام) في التضاد والحكمة

تحتوي المصادر الحديثية الشيعية على عدد كبير من أحاديث الإمام الصادق (عليه السلام) التي تتناول مفهوم التضاد وعلاقته بالحكمة الإلهية، هذه الأحاديث تشكل الأساس النصي لمفهوم "التضاد الخلّاق" الذي نسعى لتطويره.

وابرز هذه الاحاديث ما رواه المفضل بن عمرو في توحيده عن الامام الصادق (عليه السلام) :

"تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي فِي النَّفْسِ وَ مَوْقِعَهَا مِنَ الْإِنْسَانِ-أَعْنِي الْفِكْرَ وَ الْوَهْمَ وَ الْعَقْلَ وَ الْحِفْظَ وَ غَيْرَ ذَلِكَ أَ فَرَأَيْتَ لَوْ نُقِصَ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ[٣١] الْحِفْظَ وَحْدَهُ كَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُ وَ كَمْ مِنْ خَلَلٍ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ وَ مَعَاشِهِ وَ تَجَارِبِهِ إِذَا لَمْ يَحْفَظْ مَا لَهُ وَ مَا عَلَيْهِ وَ مَا أَخَذَهُ وَ مَا أَعْطَى وَ مَا رَأَى وَ مَا سَمِعَ وَ مَا قَالَ وَ مَا قِيلَ لَهُ وَ لَمْ يَذْكُرْ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَسَاءَ بِهِ وَ مَا نَفَعَهُ مِمَّا ضَرَّهُ ثُمَّ كَانَ لَا يَهْتَدِي لِطَرِيقٍ لَوْ سَلَكَهُ مَا لَا يُحْصَى وَ لَا يَحْفَظُ عِلْماً وَ لَوْ دَرَسَهُ عُمُرَهُ وَ لَا يَعْتَقِدُ دِيناً وَ لَا يَنْتَفِعُ بِتَجْرِبَةٍ وَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْتَبِرَ شَيْئاً عَلَى مَا مَضَى بَلْ كَانَ حَقِيقاً أَنْ يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ فَانْظُرْ إِلَى النِّعْمَةِ عَلَى

[٢٩] الكليني، الكافي، ج١، ص٣٢
[٣٠] الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص١٣٤.
[٣١] الخلال جمع خلة بالفتح– و هي الخصلة و الصفة.

الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْخِلَالِ وَ كَيْفَ مَوْقِعُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا دُونَ الْجَمِيعِ وَ أَعْظَمُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْحِفْظِ النِّعْمَةُ فِي النِّسْيَانِ فَإِنَّهُ لَوْ لَا النِّسْيَانُ لَمَا سَلَا[٣٢] أَحَدٌ عَنْ مُصِيبَةٍ وَ لَا انْقَضَتْ لَهُ حَسْرَةٌ وَ لَا مَاتَ لَهُ حِقْدٌ وَ لَا اسْتَمْتَعَ بِشَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَعَ تَذَكُّرِ الْآفَاتِ وَ لَا رَجَاءَ غَفْلَةٍ مِنْ سُلْطَانٍ وَ لَا فَتْرَةَ مِنْ حَاسِدٍ أَ فَلَا تَرَى كَيْفَ جُعِلَ فِي الْإِنْسَانِ الْحِفْظُ وَ النِّسْيَانُ وَ هُمَا مُخْتَلِفَانِ مُتَضَادَّانِ وَ جُعِلَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ضَرْباً مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَ مَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الَّذِينَ قَسَّمُوا الْأَشْيَاءَ بَيْنَ خَالِقَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ وَ قَدْ تَرَاهَا تَجْتَمِعُ عَلَى مَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَ الْمَنْفَعَةِ"[٣٣].

هذا الحديث يقدم المفهوم الأساسي للتضاد الخلّاق: أن التضاد ليس مجرد تقابل سلبي، بل هو مصدر للإبداع والخلق والجمال. فالله تعالى يستخدم التضاد كأداة للخلق والإبداع.

ثالثا: التحليل الفلسفي لمفهوم التضاد الخلّاق

بناءً على الأحاديث السابقة وغيرها من تعاليم الإمام الصادق (عليه السلام)، يمكننا استخلاص المعالم الأساسية لمفهوم "التضاد الخلّاق" وتحليلها فلسفياً.

تعريف التضاد الخلّاق

يمكن تعريف التضاد الخلّاق بأنه: "التقابل المنتج بين أمرين وجوديين متضادين، يؤدي بحكمة إلهية إلى إنتاج واقع جديد أكثر كمالاً وجمالاً من كل من الضدين منفرداً".

هذا التعريف يحتوي على عناصر أساسية:

أولاً: التقابل المنتج، أي أن التضاد لا يؤدي إلى التدمير أو الإلغاء، بل إلى الإنتاج والإبداع.

ثانياً: الأمران الوجوديان، أي أن كلاً من الضدين له وجود حقيقي وليس مجرد عدم.

ثالثاً: الحكمة الإلهية، أي أن هذا التضاد المنتج ليس عشوائياً، بل محكوم بحكمة إلهية.

رابعاً: الواقع الجديد الأكثر كمالاً، أي أن نتيجة التضاد تفوق كلاً من الضدين في الكمال والجمال.

خصائص التضاد الخلّاق

يتميز التضاد الخلّاق بعدة خصائص تميزه عن التضاد العادي:

١. الإنتاجية: التضاد الخلّاق منتج وليس مدمر، فهو يؤدي إلى ظهور واقع جديد وليس إلى إلغاء أحد الضدين.

٢. التوجيه الإلهي: التضاد الخلّاق موجه بحكمة إلهية نحو تحقيق الخير والكمال، وليس عشوائياً أو فوضوياً.

٣. التكامل: في التضاد الخلّاق، الضدان يكملان بعضهما البعض بدلاً من أن يلغي أحدهما الآخر.

٤. التطور: التضاد الخلّاق يؤدي إلى التطور والتقدم، وليس إلى الجمود أو التراجع.

٥. الجمال: نتيجة التضاد الخلّاق تتسم بالجمال والانسجام، وليس بالقبح أو التنافر.

مستويات التضاد الخلّاق

يمكن تمييز عدة مستويات للتضاد الخلّاق في تعاليم الإمام الصادق (عليه السلام):

---

[٣٢] سلا الشيء و سلا عنه: نسيه و هجره و طابت نفسه عنه و ذهل عن ذكره.

[٣٣] المفضل بن عمر، توحيد المفضل – ايران ؛ قم، ط:٣ ، ٧٧–٧٩.

المستوى الكوني: وهو التضاد الخلّاق في الكون الطبيعي، مثل تضاد العناصر الذي يؤدي إلى تكوين المركبات، وتضاد القوى الذي يؤدي إلى التوازن الكوني.

المستوى الحيوي: وهو التضاد الخلّاق في عالم الأحياء، مثل تضاد الوراثة والتغير الذي يؤدي إلى التطور، وتضاد القوى الحيوية الذي يؤدي إلى النمو والتطور.

المستوى الإنساني: وهو التضاد الخلّاق في عالم الإنسان، مثل تضاد العقل والعاطفة الذي يؤدي إلى الحكمة، وتضاد الفردية والجماعية الذي يؤدي إلى الحضارة.

المستوى الروحي: وهو التضاد الخلّاق في عالم الروح، مثل تضاد الخوف والرجاء الذي يؤدي إلى التوازن الروحي، وتضاد الفناء والبقاء الذي يؤدي إلى الكمال الروحي.

رابعا: التضاد الخلّاق والحكمة الإلهية

إن فهم التضاد الخلّاق في تعاليم الإمام الصادق (عليه السلام) يقودنا إلى فهم عميق للحكمة الإلهية وكيفية تجليها في الخلق. فالحكمة الإلهية لا تظهر فقط في خلق الأشياء الجميلة والمفيدة، بل تظهر أيضاً في كيفية استخدام التضاد لتحقيق الخير والكمال.

الحكمة في خلق المتضادات

يوضح الإمام الصادق (عليه السلام) أن خلق المتضادات ليس عبثاً، بل حكمة بالغة. فالله تعالى خلق النور والظلمة ليس لأنه عاجز عن خلق النور وحده، بل لأن وجود الظلمة يُظهر جمال النور وقيمته. وخلق الحياة والموت ليس لأنه عاجز عن خلق الحياة وحدها، بل لأن وجود الموت يُظهر قيمة الحياة ويحفز الإنسان على استثمارها.

هذه الحكمة تتجلى في عدة جوانب:

جانب المعرفة: فالمعرفة تقوم على التمييز، والتمييز يحتاج إلى وجود المتضادات.

جانب التقدير: فتقدير النعمة يحتاج إلى معرفة ضدها.

جانب الاختبار: فالاختبار الحقيقي يحتاج إلى وجود خيارات متضادة.

جانب التطور: فالتطور يحتاج إلى وجود قوى متضادة تدفع نحو التغيير.

الحكمة في توجيه التضاد نحو الخلق

لكن الحكمة الإلهية لا تقتصر على خلق المتضادات، بل تمتد إلى توجيه هذا التضاد نحو الخلق والإبداع. فالله تعالى لم يترك التضاد يعمل بشكل عشوائي، بل وضع له قوانين وضوابط تضمن توجيهه نحو تحقيق الخير والكمال.

هذا التوجيه يتم من خلال عدة آليات:

آلية التوازن: حيث يضع الله تعالى توازناً دقيقاً بين المتضادات بحيث لا يطغى أحدها على الآخر.

آلية التكامل: حيث يجعل المتضادات تكمل بعضها البعض بدلاً من أن تلغي بعضها البعض.

آلية التطور: حيث يجعل التضاد محركاً للتطور والتقدم نحو الأفضل.

آلية الجمال: حيث يجعل نتيجة التضاد جميلة ومنسجمة.

الحكمة في إظهار القدرة الإلهية

إن التضاد الخلّاق يُظهر القدرة الإلهية بطريقة فريدة. فخلق الأشياء المتماثلة قد يُظهر القدرة على الخلق، لكن خلق المتضادات وجعلها تتفاعل بطريقة منتجة ومبدعة يُظهر قدرة أعظم وحكمة أبلغ.

فالله تعالى قادر على:

١.خلق المتضادات دون أن تتصارع أو تتدمر.

٢.جعل المتضادات تتفاعل بطريقة منتجة.

٣.توجيه نتائج هذا التفاعل نحو تحقيق الخير والكمال.

٤.الحفاظ على التوازن بين المتضادات عبر الزمن.

هذه القدرة المتعددة الأبعاد تُظهر عظمة الخالق وكمال حكمته بطريقة لا يمكن أن تُظهرها أي طريقة أخرى من طرق الخلق.

المبحث الثالث: البرهان الفلسفي للتضاد الخلّاق على وجود الله

اولا: صياغة البرهان

بناءً على التأسيس المفاهيمي الذي قدمناه في الفصلين السابقين، يمكننا الآن صياغة برهان فلسفي متكامل على وجود الله تعالى من خلال مفهوم التضاد الخلّاق. هذا البرهان يقوم على مقدمات منطقية مترابطة تؤدي إلى نتيجة حتمية تثبت وجود الخالق العظيم.

المقدمة الأولى: وجود التضاد في الكون

إن أول ما يلاحظه الإنسان عند تأمله للكون هو وجود التضادات في كل مستوى من مستويات الوجود. ففي عالم الطبيعة نجد: النور والظلمة، الحر والبرد، الجفاف والرطوبة، الصلابة واللين، الثقل والخفة. وفي عالم الأحياء نجد: الحياة والموت، النمو والذبول، الصحة والمرض، القوة والضعف. وفي عالم الإنسان نجد: الخير والشر، الحق والباطل، الجمال والقبح، السعادة والشقاء.

هذا الوجود الشامل للتضاد ليس مجرد ملاحظة سطحية، بل هو حقيقة كونية أساسية يشهد بها العقل والحس معاً. فلا يمكن لأي إنسان عاقل أن ينكر وجود هذه التضادات في الكون، لأنها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

المقدمة الثانية: التضاد المنتج وليس المدمر

إن التأمل الدقيق في طبيعة التضاد الموجود في الكون يكشف لنا حقيقة مذهلة: أن هذا التضاد منتج ومبدع وليس مدمراً أو مخرباً. فتضاد العناصر الطبيعية يؤدي إلى تكوين المركبات المعقدة والجميلة. وتضاد القوى الفيزيائية يؤدي إلى التوازن الكوني والاستقرار. وتضاد الفصول يؤدي إلى تنوع الحياة وثرائها. وتضاد القوى النفسية في الإنسان يؤدي إلى الإبداع والتطور الحضاري.

هذه الإنتاجية في التضاد ليست عشوائية أو صدفة، بل هي نمط ثابت ومستمر في جميع مستويات الكون. فحيثما وُجد تضاد حقيقي في الطبيعة، نجد أنه يؤدي إلى إنتاج شيء جديد أكثر تعقيداً وجمالاً من كل من الضدين منفرداً.

المقدمة الثالثة: التوجيه والتنظيم في التضاد

إن الإنتاجية في التضاد لا تحدث بشكل عشوائي، بل تحدث وفق نظام دقيق ومحكم. فالتضاد بين الأحماض والقواعد لا يؤدي إلى تدمير متبادل، بل يؤدي إلى تكوين الأملاح المفيدة وفق قوانين كيميائية دقيقة. والتضاد بين القوى الجاذبة والطاردة في الذرة لا يؤدي إلى انهيار الذرة، بل يؤدي إلى استقرارها

وفق قوانين فيزيائية محددة. والتضاد بين الليل والنهار لا يؤدي إلى فوضى زمنية، بل يؤدي إلى نظام زمني منتظم يحكم الحياة على الأرض.

هذا التنظيم والتوجيه في التضاد يدل على وجود حكمة عليا تدبر هذا التضاد وتوجهه نحو تحقيق الخير والكمال. فلو كان التضاد يعمل بشكل عشوائي لأدى إلى الفوضى والدمار، لكن الواقع يشهد بعكس ذلك تماماً.

المقدمة الرابعة: عجز المتضادات عن تنظيم نفسها

إن المتضادات بطبيعتها عاجزة عن تنظيم نفسها أو توجيه تفاعلها نحو الإنتاج والإبداع، فالنار بطبيعتها تحرق والماء بطبيعته يطفئ، ولا يمكن لأي منهما أن يقرر متى وكيف يتفاعل مع الآخر لإنتاج البخار المفيد. والليل بطبيعته ظلام والنهار بطبيعته نور، ولا يمكن لأي منهما أن يحدد مدة بقائه أو طريقة انتقاله إلى الآخر.

هذا العجز الذاتي للمتضادات عن التنظيم والتوجيه يدل على أن النظام الموجود في التضاد الكوني لا بد أن يكون مصدره خارجاً عن المتضادات نفسها. فلا بد من وجود قوة عليا تنظم هذا التضاد وتوجهه نحو الإنتاج والإبداع.

قال العلّامة الطباطبائي (قده) في تفسيره عند قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ} [الإسراء: ١٢]:

"النظام الكوني في تعاقب الليل والنهار يدل على وجود تدبير حكيم، إذ أن هذه الظواهر لا يمكن أن تنسق نفسها بذاتها"[٣٤].

وقال صدر المتألهين الشيرازي (قده):

"لا يمكن للأضداد أن تنتظم في نظام إلا بعناية عقلٍ كليٍ أو مدبّر حكيم، لأنها بطبعها تميل إلى التنافر لا إلى التآلف[٣٥]".

النتيجة: وجود الله تعالى

من المقدمات السابقة نستنتج بالضرورة العقلية وجود الله تعالى. فوجود التضاد المنتج والمنظم في الكون، مع عجز المتضادات عن تنظيم نفسها، يدل دلالة قاطعة على وجود خالق حكيم قادر على:

١. خلق المتضادات دون أن تتصارع أو تتدمر.

٢. تنظيم تفاعل هذه المتضادات بطريقة منتجة ومبدعة.

٣. توجيه نتائج هذا التفاعل نحو تحقيق الخير والكمال.

٤. الحفاظ على هذا النظام واستمراريته عبر الزمن.

ثانيا: تحليل مقدمات البرهان

لضمان صحة البرهان ومتانته المنطقية، لا بد من تحليل كل مقدمة من مقدماته وبيان أدلتها وشواهدها.

تحليل المقدمة الأولى: وجود التضاد

إن وجود التضاد في الكون حقيقة لا تحتاج إلى برهان، لأنها من البديهيات التي يدركها كل إنسان عاقل. لكن يمكننا تقديم بعض الأدلة والشواهد لتأكيد هذه الحقيقة:

---

[٣٤] الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج١٣، ص١٩١.
[٣٥] الأسفار الأربعة، ج٧، ص٥٨.

الدليل الحسي: فجميع الحواس تشهد بوجود التضادات. فالعين ترى النور والظلمة، والأذن تسمع الصوت والصمت، واللسان يذوق الحلو والمر، والأنف يشم العطر والنتن، واليد تلمس الحار والبارد.

الدليل العقلي: فالعقل يدرك التضادات المعنوية مثل الخير والشر، والحق والباطل، والجمال والقبح، والعدل والظلم.

الدليل العلمي: فالعلوم الطبيعية تؤكد وجود التضادات في جميع مستويات المادة، من الجسيمات الأولية إلى المجرات العملاقة.

تحليل المقدمة الثانية: الإنتاجية في التضاد

إن إنتاجية التضاد في الكون ليست مجرد ملاحظة عابرة، بل هي قانون كوني ثابت يمكن إثباته بأدلة متنوعة:

في الكيمياء: تفاعل الأحماض مع القواعد ينتج الأملاح والماء، وتفاعل العناصر المختلفة ينتج مركبات جديدة ذات خصائص مفيدة.

في الفيزياء: تضاد القوى الكهربائية الموجبة والسالبة ينتج التيار الكهربائي، وتضاد القوى المغناطيسية ينتج الطاقة المغناطيسية.

في البيولوجيا: تضاد الوراثة والتغير ينتج التطور والتكيف، وتضاد القوى الحيوية المختلفة ينتج النمو والتطور.

في علم النفس: تضاد العقل والعاطفة ينتج الحكمة والإبداع، وتضاد الرغبات المختلفة ينتج التوازن النفسي.

تحليل المقدمة الثالثة: التنظيم في التضاد

إن وجود التنظيم والتوجيه في التضاد الكوني يمكن إثباته من خلال ملاحظة الأنماط الثابتة والقوانين المحددة التي تحكم تفاعل المتضادات:

القوانين الفيزيائية: مثل قانون حفظ الطاقة، وقانون الجاذبية، وقوانين الديناميكا الحرارية، التي تنظم تفاعل القوى المتضادة في الطبيعة.

القوانين الكيميائية: مثل قانون حفظ الكتلة، وقانون النسب الثابتة، وقانون التوازن الكيميائي، التي تنظم تفاعل العناصر المتضادة.

القوانين البيولوجية: مثل قوانين الوراثة، وقوانين التطور، وقوانين البيئة، التي تنظم تفاعل القوى الحيوية المتضادة.

القوانين الاجتماعية: مثل قوانين العرض والطلب، وقوانين التوازن الاجتماعي، التي تنظم تفاعل القوى الاجتماعية المتضادة.

تحليل المقدمة الرابعة: عجز المتضادات

إن عجز المتضادات عن تنظيم نفسها يمكن إثباته من خلال عدة اعتبارات:

الاعتبار الأول: أن كل ضد محدود بطبيعته، والمحدود لا يمكن أن ينظم ما هو أوسع من حدوده أن "المحدود لا يكون علّة لما هو أوسع منه"[٣٦].

[٣٦] العلامة الحلي، نهج الحق وكشف الصدق، ص ٢٣١.

الاعتبار الثاني: أن كل ضد متعين بخصائص معينة، والمتعين لا يمكن أن يتجاوز تعينه ليشمل ضده" كل وجود متعين لا يشتمل على نقيضه، لأن الوجود يطرد العدم[٣٧]".

الاعتبار الثالث: أن التنظيم يحتاج إلى علم شامل بجميع الأطراف، والضد الواحد لا يملك هذا العلم الشامل حيث" لا يصح نسبة الإحكام إلى المتضادين لأن كلاً منهما جاهل بحال صاحبه[٣٨]".

الاعتبار الرابع: أن التنظيم يحتاج إلى قدرة على التحكم في جميع الأطراف، والضد الواحد لا يملك هذه القدرة حيث أن "الفاعل المختار هو القادر العالم، ولا يكون أحد الضدين فاعلًا ما لم يُجمع بين المتقابلات، وذلك ممتنع فيهما[٣٩]"

ثالثا: مقارنة برهان التضاد الخلّاق مع البراهين الأخرى

لإبراز خصوصية وقوة برهان التضاد الخلّاق، لا بد من مقارنته مع البراهين الفلسفية الأخرى على وجود الله.

مقارنة مع برهان الحدوث:

يُعدّ برهان الحدوث من أشهر البراهين التي قدّمها المتكلمون لإثبات وجود الله، ويقوم على قاعدة عقلية مفادها أن "كل حادث لا بد له من مُحدِث، والعالم حادث، فلا بد له من مُحدِث هو الله" [٤٠]

هذا البرهان مقبول عند جمهور المتكلمين، إلا أن برهان التضاد الخلّاق يُمكن أن يُقدَّم بوصفه تطويرًا جديدًا له يميّزه من عدة جهات:

أولًا: عدم الحاجة إلى إثبات حدوث العالم

بينما يعتمد برهان الحدوث على مقدمة أن العالم حادث، وهي مسألة خاضعة لنزاع طويل بين الفلاسفة والمتكلمين، فإن برهان التضاد الخلّاق يتجاوز هذا الخلاف، إذ ينطلق من مشاهدات مباشرة للتضاد في الوجود، دون حاجة لإثبات أن العالم مخلوق في الزمن[٤١].

ثانيًا: التركيز على الحكمة والتنظيم لا على السببية فقط

برهان الحدوث يُثبت وجود الله كمبدأ سببي، بينما يثبت برهان التضاد الخلّاق أن وراء النظام المتوازن بين المتضادات عقلًا حكيمًا يُحسن التدبير، وهذا يُقرّب الصورة الإلهية من مفهوم الحكمة، لا مجرد السببية. [٤٢]

ثالثًا: إظهار الله كخالق مبدع لا مجرد علة أولى

برهان الحدوث يُظهر الله كمبدأ للعليّة، في حين يُظهر برهان التضاد الخلّاق أن الله ليس مجرد سبب، بل منظّم ومُبدع ومتصرّف، قادر على خلق الاتزان من التنافر. وهو ما يجعل البرهان أقرب إلى تصوير الله بصفاته الفعلية والذاتية معًا. [٤٣]

---

[٣٧] الأسفار الأربعة، ج١، ص ٣٣.
[٣٨] الشريف المرتضى، الذخيرة في علم الكلام، ج١، ص ٢٠١.
[٣٩] الطوسي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٧٦.
[٤٠] الطوسي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٤٥.
[٤١] انظر: صدر المتألهين، الأسفار الأربعة، ج٦، ص ١٢؛ ابن رشد، تهافت التهافت، ج١، ص ٢١٧.
[٤٢] انظر: العلامة الطباطبائي، أصول الفلسفة والمذهب الواقعي، ج١، ص ١٥٠.
[٤٣] الفيض الكاشاني، العين الجارية في شرح الكافية البهائية، ج١، ص ٩٢؛ السيد محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ص ٢١٧.

مقارنة مع برهان النظم:

يُعد برهان النظم من أبرز البراهين العقلية التي استُعملت لإثبات وجود الله، ويقوم على قاعدة أن النظام البديع الذي يملأ الكون لا يمكن أن يصدر عن الصدفة أو العشوائية، بل يدل على وجود منظِّم حكيم. وهو البرهان الذي قرّره المتكلمون والفلاسفة مثل:ا الطوسي [٤٤] وصدر المتألهين الشيرازي[٤٥] والطباطبائي [٤٦].

أما برهان التضاد الخلّاق، فهو يُعد تطويرًا نوعيًا لبرهان النظم، ويتميز عنه في النقاط الآتية:

١) تركيز برهان التضاد الخلّاق على نوع خاص من النظام: بينما ينظر برهان النظم إلى مجمل النظام في الطبيعة، فإن برهان التضاد الخلّاق يُركّز على نظامٍ ناتجٍ عن تفاعل المتضادات؛ كالتوازن بين الحرارة والبرودة، والنور والظلمة، والحياة والموت، وهذه الأمور لا يمكن أن تُنتج نظامًا متزنًا بذاتها، مما يدل على أن هناك عقلًا خارج هذه الأضداد يُديرها.

٢) إبراز الإبداع الإلهي في التضاد كأداة للخلق: برهان النظم التقليدي يُثبت وجود منظم حكيم، لكنه لا يتناول بالتحليل كيف يُدار التناقض في الطبيعة ،أما برهان التضاد الخلّاق، فيُظهر الله لا فقط كمنظّم، بل كـ خالق مبدع يوظّف التناقض كأداة مقصودة للخلق والتوازن.

٣) تحديد أوسع وأكثر دقة: برهان التضاد الخلّاق أكثر تخصّصًا من برهان النظم، لأنه لا يكتفي بملاحظة انتظام الطبيعة، بل يركّز على الانتظام الصادر من التنافر ذاته، مما يجعله أقوى في الإقناع وأكثر ارتباطًا بالملاحظة المباشرة في العلوم الطبيعية والبيولوجيا.

مقارنة مع برهان الإمكان والوجوب

برهان الإمكان والوجوب هو من أعمدة البراهين الفلسفية التي اعتمدها الفلاسفة المسلمون، خصوصًا:

ابن سينا في كتاب الشفاء، حيث صاغه بطريقة منهجية تحت عنوان "واجب الوجود بذاته[٤٧]." والطوسي [٤٨]،صدر المتألهين الشيرازي [٤٩] والسبزواري[٥٠].

يقوم البرهان على أن كل ممكن لا يوجد بذاته، بل يحتاج إلى مرجِّح، وهذا المرجّح لا بد أن ينتهي إلى واجبٍ للوجود لا يحتاج في ذاته إلى مرجّح خارجي، وهو الله تعالى.

أما برهان التضاد الخلّاق، فهو يختلف من حيث المنهج والنطاق العقلي الذي يعالجه، ويتميز عنه بعدة نقاط:

١) سهولة الفهم والوضوح العقلي:برهان الإمكان والوجوب يتطلب فهمًا عميقًا لمفاهيم الإمكان والوجوب والامتناع، وهي مفاهيم فلسفية مجردة قد لا تكون يسيرة على غير المتخصصين ،بينما برهان التضاد الخلّاق ينطلق من مشاهدات حيوية وعينية في الواقع: كالتضاد بين النار والماء، والليل والنهار، والحياة والموت وهذه القضايا أقرب إلى الحس والفهم الشعبي.

---

[٤٤] تجريد الاعتقاد ص ٥٠.
[٤٥] الأسفار ج٦، ص ١٥.
[٤٦] الميزان ج١، ص ١٤٠–١٤١.
[٤٧] الإلهيات ،ج١، ص ٥٨–٦٠.
[٤٨] تجريد الاعتقاد ص ٥٢.
[٤٩] الأسفار ج٦، ص ١٠–١٢.
[٥٠] شرح المنظومة قسم الحكمة، ص ٢٠٠–٢٠٢.

قال العلامة الطباطبائي : "إن النظر الفلسفي يحتاج إلى التأمل في الماهيات والإمكان، بينما يمكن للإنسان البسيط أن يدرك أن للنظام في التفاعل دلالة على مبدأ حكيم".[٥١]

٢) عدم الحاجة إلى مصطلحات فلسفية مجردة:

لا يستخدم برهان التضاد الخلّاق مفاهيم كـ "الواجب بالذات"، أو "المرجّح بلا مرجَّح"، بل يستند إلى واقعية التجربة وملاحظة القانون الكوني في التفاعل بين الأضداد، مما يجعله صالحًا للاستخدام التربوي والدعوي.

٣) التركيز على الجانب العملي في إثبات القدرة الإلهية: برهان الإمكان يثبت وجود الله بوصفه مبدأً واجبًا للوجود ، أما برهان التضاد الخلّاق، فيُظهر القدرة الإلهية الإبداعية التي تُحسن توظيف الأضداد وتسييرها لإنتاج التوازن والحياة والتنوع ،وهذه رؤية أكثر ديناميكيةً وعمقًا في فهم التجليات الإلهية.

رابعا: الاعتراضات المحتملة والرد عليها

كأي برهان فلسفي، قد يواجه برهان التضاد الخلّاق بعض الاعتراضات، لذا لا بد من استباق هذه الاعتراضات والرد عليها.

الاعتراض الأول: التضاد قد يكون مدمراً

قد يعترض معترض بأن التضاد في كثير من الحالات يكون مدمراً وليس منتجاً، مثل الحروب والصراعات والكوارث الطبيعية.

والرد عليه ، إن هذا الاعتراض يخلط بين التضاد الطبيعي والتضاد الاختياري. فالتضاد الطبيعي (مثل تضاد العناصر والقوى الطبيعية) منتج دائماً، أما التضاد الاختياري (مثل الحروب) فقد يكون مدمراً بسبب سوء استخدام الإنسان لحريته. لكن حتى التضاد الاختياري المدمر يؤدي في النهاية إلى تعلم الإنسان وتطوره، فهو منتج على المدى الطويل.

الاعتراض الثاني: التنظيم قد يكون طبيعياً

قد يعترض معترض بأن التنظيم الموجود في التضاد قد يكون نتيجة لقوانين طبيعية وليس لتدبير إلهي.

والرد عليه، إن هذا الاعتراض لا يحل المشكلة بل ينقلها إلى مستوى آخر. فمن أين جاءت هذه القوانين الطبيعية؟ ولماذا هي منظمة ومنتجة؟ إن وجود قوانين طبيعية منظمة يدل على وجود واضع لهذه القوانين، وهو الله تعالى.

الاعتراض الثالث: التطور قد يفسر التنظيم

قد يعترض معترض بأن التنظيم الموجود في الكون نتيجة للتطور الطبيعي، فالأشكال المنظمة بقيت والأشكال الفوضوية انقرضت.

والرد عليه: إن هذا الاعتراض يفترض وجود آلية للانتقاء الطبيعي، لكن من أين جاءت هذه الآلية؟ ولماذا تعمل باتجاه التنظيم والتعقيد؟ إن وجود آلية انتقاء تعمل باتجاه التنظيم يدل على وجود حكمة عليا توجه هذا الانتقاء.

الخاتمة

[٥١] الميزان ،ج١، ص ١٤١.

بعد هذه الرحلة الطويلة في استكشاف مفهوم "التضاد الخلّاق" كبرهان عقلي على وجود الله في تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، يمكننا أن نخلص إلى عدة نتائج مهمة:

أولاً: إن مفهوم التضاد الخلّاق مفهوم أصيل في التراث الإسلامي، وله جذور عميقة في تعاليم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وغيره من أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

ثانياً: إن التضاد الخلّاق يقدم برهاناً قوياً ومقنعاً على وجود الله، يتميز بالوضوح والشمولية والحداثة.

ثالثاً: إن هذا المفهوم له تطبيقات واسعة في نظرية المعرفة وعلم الكلام والأخلاق والحضارة الإسلامية.

رابعاً: إن برهان التضاد الخلّاق يكمل البراهين التقليدية على وجود الله ولا يتعارض معها، بل يقويها ويوضحها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١) ابن حجر العسقلاني .تهذيب التهذيب .ط.١. بيروت: دار صادر، ١٩٦٧م.
٢) ابن فارس، أحمد .مقاييس اللغة .ط.٢. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
٣) ابن منظور .لسان العرب .ط.٣. بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.
٤) ابن سينا .الشفاء .ط.١. قم: منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٤هـ.
٥) السبحاني، جعفر .الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل .ط.٧. قم: مؤسسة الإمام الصادق (ع)، ١٤٣٠هـ.
٦) السبزواري، ملا هادي .شرح المنظومة .ط.٥. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٣هـ.
٧) السهروردي، شهاب الدين .حكمة الإشراق .ط.٢. طهران: شركة سهامي انتشار، ١٣٧٢ش.
٨) الطبرسي، أحمد بن علي .الاحتجاج .ط.١. بيروت: دار الأسوة، ١٤٠٣هـ.
٩) الطبرسي، الفضل بن الحسن .مجمع البيان في تفسير القرآن .ط.١. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤١٥هـ.
١٠) الطوسي، نصير الدين .أخلاق ناصري .ط.١. طهران: انتشارات خوارزمي، ١٣٧١ش.
١١) الطوسي، نصير الدين .تجريد الاعتقاد .ط.٣. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٦هـ.
١٢) العلامة الحلي .الباب الحادي عشر مع شرحه .ط.٢. قم: دار النشر الإسلامية، ١٤١١هـ.
١٣) العلامة الحلي .كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد .ط.٤. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٠هـ.
١٤) العلامة الحلي .نهج الحق وكشف الصدق .ط.١. قم: منشورات دليل ما، ١٤٢٣هـ.
١٥) الكليني، محمد بن يعقوب .الكافي .ط.٦. طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨هـ.

١٦) المجلسي، محمد باقر .بحار الأنوار .ط.٢. بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.

١٧) المفيد، محمد بن محمد .الإرشاد .ط.٢. بيروت: دار المفيد، ١٤١٣هـ.

١٨) المفيد، محمد بن محمد .أوائل المقالات .ط.١. قم: مؤتمر الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.

١٩) المرتضى، الشريف .الشافي في الإمامة .ط.٢. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٠هـ.

٢٠) الطبطبائي، محمد حسين .الميزان في تفسير القرآن .ط.٥. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤١٧هـ.

٢١) الطبطبائي، محمد حسين .نهاية الحكمة .ط.٦. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٨هـ.

٢٢) الصدوق، محمد بن علي .التوحيد .ط.١. قم: جماعة المدرسين، ١٣٩٨هـ.

٢٣) الصدر، محمد باقر .المدرسة الإسلامية .ط.١. بيروت: دار التعارف، ١٩٧٧م.

٢٤) الغزالي، أبو حامد .إحياء علوم الدين .ط.١. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.

٢٥) الذهبي، شمس الدين .سير أعلام النبلاء .ط.٩. بيروت: مؤسس[٥٢]ة الرسالة، ١٤١٣هـ.

٥٢